

إن الناس يتصورون الاستجابة الصحية تصورا حسنا ، ولكن تقاليد أو موارث تجعلهم يتجاهلوننا إذا تعاملوا مع اللغة .

على هذا النحو يقرب العقاد مسائل القراءة واللغة من القارئ ، ويجعل الأدب مسئولا عن تغذية الاستجابات الأساسية أو الحاجات الثانية التي هي فوق الحاجات أو القيود الأولى .

لكن القارئ العام ظل وقتا غير قصير يأخذ أمر الشعر مأخذا سهلا ، يفرق على الدوام بين المتعة والفائدة ، ويفرق بين الخيال والمجد والصحة . والناس إلى وقتنا هذا لا يحاسبون الشاعر على ما يقول ويوسعون له في الترخيص لأنه شاعر .

والحقيقة أن العقاد كان يعلم أن الأدب الرديء أوسع انتشارا من الأدب القيم ، وأن الناس يقللون من شأن الأدب واعين أو غير واعين ، ومن ثم يتيحون للأدب الرديء ما لا يتيحونه لأنفسهم في واقع الحياة . وبعبارة أخرى حارب العقاد مفهوم التسلية كما يتصوره القارئ العربي .

من ذلك أن القارئ بوجه عام ينكر الرقة المسرفة في الشكوى ، وينكر الأنوثة في الحنان ، وينكر الدموع الكثيرة والأهات ، وينبذ السرف في الحزن والبث والشقاء . ولكن الشيء الذي يلفت النظر أن هذا القارئ يرضى لكثير من النماذج التي يقرؤها ما لا يرضاه لنفسه وولده وزوجه وصديقه المفضل . وربما أعجبه قصيدة كثر دمعا وتدللها واستعطافها . ولكنه لا يطيق أن يكون هذا النموذج ولا يرضاه .

هذه المفارقة بين سلوك القارئ العربي وذوقه في استحسان الشعر ذات مغزى ، فالشعر في أعماق نفس القارئ ، والأدب بعامة ، شيء ليس ذا حظ كبير من المجد والثقة والصدق . ولم تدرس هذه المفارقة حتى الآن . والمهم هو أن ميول القراء كانت موضوع ملاحظات العقاد . درسها ووجهها وعنف في إصلاحها في بعض الأحيان .

للقراء على الأقل في الثلاثينات مزاج أو أمزجة . من هذا المزاج أنه يستحسن كل شعر يُعبد فيه المحبوب . والقارئ بداهة لا يعبد محبوبه . ولكن الشعر له تقاليد ، وله قدرة على أن يزين القبيح ، ويعرضه في صورة الحسن . وهذا ما لاحظته الجاحظ ولم يشدد في إنكاره . ولكن العقاد كان صارما متوقفا الإحساس الأخلاقي ، وكان في